﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٣٣﴾ [الرّعد: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لمّا ذَكرت الآيات السّابقة قُدْرته ﷻ على رفْع السّموات وخفْض الأراضين ونصْب الأدلّة على وحدانيته بباهِر الآيات البيِّنات، وقُدْرته على الثّواب والعِقاب، وأنّ ذلك ليس لأحد سواه، ناسَب أن تأتيَ هذه الآية للتّأكيد على وحدانيّته ورفْض عبادة الأصنام والأوثان؛ فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ الآية.

ومن المناسبة أيضًا: لمّا ذَكر الله الوعيدَ للكافرين والجوابَ عن اقتراحهم الآياتِ على رسول الله ﷺ، أوْرَدَ تعالى على المشركين في هذه الآية ما يَجري مجرى الحِجاج عليهم، وما فيه توبيخ لهم وتعجيب من عقولهم، وكيف أنّها وصلَتْ إلى حدٍّ لا ينبغي لعاقل أن يَقبلَه ولا يرضى به فقال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَآئِمٌ﴾: القائم: الحافظ لكلِّ شيءٍ، والمُعطي له ما به قِوامُهُ، وذلك هو المعنى المذكور في قوله، ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ﴾، فهو تعالى مُتولّيها ومُدبِّرُها في جميع شُؤونها في الخَلْقِ والأجَلِ والرِّزْقِ، والعالِم بأحوالها وأعمالها[2]، والمعنى المحوريُّ: انتصاب الشَّيْء إلى أعلى ثابتًا، كَقامَة الإنسان، وقيامِه، وثَبات الدّابّة، والماء في مكانه[3].

2) ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾: الكَسْبُ: الجَمْعُ والتَّحصيلُ، تقول: كَسَبتُ مالًا، واكتسبتُه كسْبًا واكتسابًا؛ أيْ: جَمعْتُه وحصّلْتُهُ، وأصلُه: الطَّلَب والسَّعي، ويأتي بمعنى الشَّيء المُكتَسَب،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/107.
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 373، والرّاغب، المفردات: (قوم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

وفِعل الشَّيْء بالجارحة، ومعنى ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أيْ: بما عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ، فلا تَخفَى على الله تعالى خافيَةٌ، فيُثيبها إن أحسَنَت، ويُعاقبها إن أساءَتْ[1]. والمعنى المحوريُّ: جَمْع الشَّيء وتحصيلُه (شيئًا بعد شيء) بجُهْدٍ ما أخذًا من حيث كان: كما تأخذ الجوارحُ (الكلابُ والطّيورُ المُعلَّمة الصَّيدَ) فرائسَها (مرَّةً بعد أخرى)، وكما يُجمع المالُ من مظانّه (شيئًا بعد شيء)، ومنه: الكَسْب: طَلَبُ الرِّزق[2].

3) ﴿سَمُّوهُمْ﴾: الاسْمُ: اللَّفظ الدّالُّ على الشَّيء، ويأتي بمعنى اللَّفظ الدّالّ على معنى في نفْسه. وأصلُه مِن السُّموِّ، وهو: العُلوّ، أو مِن السِّمَة، وهي: العَلامَة. ومعنى ﴿سَمُّوهُمْ﴾؛ أيْ: سَمّوا مَن له صِفات يَستحِقُّ بها الأُلوهيَّة، وهذا على سبيل الإنكار عليهم؛ لأنَّه ليس للأصنام أسماء الخالِقين ولا صِفاتهم[3]، والمعنى المحوريُّ: ارتفاع الشَّيء أو شخوصه مُلتَئمًا ظاهره وأعلاه على ما تحْتَه: كالسَّماء المُلتئمة كالسَّقف فوقَنا، وكسَقْف البيت عليه، وأعلى الفرَس دونَه بدنُه وقوائمُه[4].

4) ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾: النَّبَأُ: خبَر ذو فائدة عظيمة يحصل به عِلمٌ أو غلبة ظَنٍّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نبأ حتّى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة، تقول: نَبَأ ونَبَّأ؛ أيْ: أخْبَر، والمعنى: أتُخبرونَ الله بِشركاء لا وجودَ لهُم في الأرض؟[5]، والمعنى المحوريُّ: ظهور أو طُروء مَسبوق أو مكنوفٌ بخفاءٍ ما[6].

5) ﴿بِظَٰهِرٍ﴾: الأصل في (الظّاهِر): الواضِحُ البَيِّنُ، ويأْتي بِمعنى البارِزِ والمُنْكَشِف، غير أنَّ له هاهُنا تفسيرَيْن؛ أحدهما: أنَّه كلامٌ ظاهر، وليس له في الحقيقةِ باطِن ومعنى رُجوع إلى حقيقةٍ، والثّاني: أنَّ معناه الباطل الزّائل، من قولهم: ظهر عنّي هذا العَيب؛ أيْ: لَم يَعلق بي ونبا عنّي، ومنه قول أبي ذؤيْب[7]: (وتِلْكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها)؛ أيْ:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كسب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سمو).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).
(7) البيت من بحر الطَّويل، في ديوان الهذليّين: 1/21، وصدْره: وَعَيَّرَهَا الوَاشُونَ أَنّي أُحِبُّهَا.

باطل وزائل[1]، والمعنى المحوريُّ: بُروزٌ من أثناءٍ أو باطنٍ إلى سَطْح، مع شِدَّة وغِلَظٍ أو قوَّة، كالظَّهر من الأرض، ومن الحيوان والإنسان وكظَواهر الأوديَة والجبل بالنِّسبة لِما دونها[2].

6) ﴿زُيِّنَ﴾: الزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْن، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تَصْيير الشَّيْء زَينًا؛ أيْ: حَسَنًا؛ أيْ: زَيَّنَ لهم الشَّيطانُ جَعْلَ تلك الأصنام والأوثان والشُّركاء آلِهةً تُعبد من دون الله، وقيلَ: الَّذي زَيَّنَ للكافِرينَ مَكْرَهُمُ الله تَعالى[3]، والمعنى المحوريُّ: زيادةٌ محببةٌ تعلقُ بظاهر الشَّيء (ناشئة) عمّا يَزخر به باطنُه، كعُرف الدّيك ونبات الأرض عليها، وثمرة النَّخلة لها[4].

7) ﴿مَكْرُهُمْ﴾: المَكْرُ: صَرْفُ الغَير عمّا يقصِدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: مَكرٌ محمودٌ، وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعل جميلٍ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: 54]، ومذمومٌ، وهو أن يتحرَّى به فعل قبيح، وعلى ذلك قوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾، والمُراد به هُنا: كفرُهم ومسالكُهم الخبيثة ضدَّ الإسلام والمسلمين[5]، والمعنى المحوريُّ: اختزانُ رقيقٍ أو لطيفٍ في الأثناء فتكْتَنز به ولا يَبرز متميِّزًا. كاختزان الحبوب في البيوت، والماء في أثناء الأرض، والشَّحم في السّاق المُلتفَّة، والنَّدى في الرّطبة الصُلْبة، ومنه المَكْرُ وهو (احتيال في خُفية)، فالمكر هو تدبير (يخْفى ويُخْتَزَن) لأحْداثٍ أو أُمور لِتَقَعَ في المُستقبَل على نحْوٍ ما، فاختزان هذه الخطوات المُعَدَّة للمُستقبل هو المكْر (ومَأْخذ هذا من الأصل واضح)، ويكون ذلك التَّدبُّر لخير أو لشرٍّ، وأقرب ألفاظِهم له هو الكيْدُ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّنُ لنا الآية الكريمةُ لَونًا مِن الحِجاجِ مع المُشركينَ، يتضَمَّنُ توبيخًا لهم، وتعجيبًا مِن عُقولِهم، فيقولُ سُبحانه: أفمَن هو قائِمٌ على شُؤونِ جَميعِ العِبادِ - مِن أرزاقٍ وغيرِها - رقيبٌ على ما يَكسِبونَه مِن أعمالٍ، حافِظٌ لها، ومُجازٍ عليها، كمَن ليس كذلك مِن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(5) الرّاغب، المفردات: (مكر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكر).

هذه الأصنام؟!، وجَعَلوا للّه شُرَكاءَ مِن خَلْقِه يَعبُدونَهم، قلْ لهم - يا مُحمَّدُ: سمّوهم بالأسماءِ الَّتي يَستحقّونَها ما دُمْتُم جعَلْتموهم شركاءَ للّه، ولن يَجِدوا ما يَجعَلُهم أهلًا للعبادةِ، أم تُخبِرونَ اللّه بشُرَكاءَ في أرضِه لا يعلَمُهم، أم تُسَمّونَهم شُرَكاءَ بظاهرٍ مِن اللَّفظِ مِن غيرِ أن يكونَ لهم حقيقةٌ! بل حُسِّنَ للكُفّارِ قَولُهم الباطِل، وصُرِفوا عن سبيلِ اللّه، ومَن يُضِلّه اللّه فلا أحدَ يهديه، ويأخذُ بيدِه إلى الحَقِّ والرَّشادِ[1].

تَوبيخ المشركين وإثبات الوحدانيَّة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصْل ﴿أَفَمَنْ هُوَ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عَمّا قبْلَه؛ لأنَّه يجري مجرى الحِجاج على الكفّار، وذلك بما تقرَّر من إثبات قُدْرته تعالى وقيّوميَّته على خَلْقه وأنَّ الأصنام والأوثان ليس لها وجود حتّى تُعبد من دون اللّه.

استحقاقه للعبادة دون سواه وأدلَّة ذلك

غرض الاستفهام في: ﴿أَفَمَنْ﴾:

غرض الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ إنكارٌ تلك التَّسويَة المُفاد من لفظ شُركاء[2]، وفي ثنايا الإنكار يأتي التَّعجُّب والتَّهكُّم من هذا الفعل المُستغرَب، فالمُساواة بين الخالق والمخلوق أمر تتجنّبه العقول السَّليمة، فالاستفهام اتِّهام لعقول الكافرين؛ لأنَّها وصلتْ إلى حدٍّ لا ينبغي لعاقل أن يقبله ولا يرضى به.

إنكار المُساواة بين الخالِق والمَخلوق

سِرُّ التَّعبير بالفاء في: ﴿أَفَمَنْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أُدخلت الفاء لتوّجيه الإنكارِ إلى تَوهُّم المُماثلة بعدما عُلم مِمّا فَعل تعالى بالمُستهزئين، من الإملاء المديدِ والأخذ الشَّديد، ومن كون الأمرِ كُلّه للّه تعالى وكونِ هداية

إنكار تَوَهُّم المُماثَلة بين الله ومخلوقاته

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/545، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

النّاس جميعًا منوطةً بمشيئته تعالى، ومن تواتُر القوارعِ على الكَفَرة إلى أنْ يأتيَ وعدُ الله، كأنَّه قيل: الأمْرُ كذلك؟ فمَن هذا شأنُه، كما ليس في عِداد الأشياء حتّى تُشركوه به[1].

دلالة حذْف خبَر ﴿أَفَمَنْ﴾:

التَّحقير وضَعف الإيمان

الخبر في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ محذوفٌ دلّت عليه جملة ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾. والتَّقدير: أمَن هو قائمٌ على كُلِّ نفس ومَن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة؟! ودَلَّ على هذا التَّقدير ما تقتضيه الشَّركة في العبادة من التَّسوية في الإلهيَّة واستحقاق العبادة[2]، والغرض من الحذْف الدَّلالة على تحقير الشَّريك المُدَّعَى، بحيث لا يليق أن يُذكَر مع صفات الله وقيّوميَّته، وإنَّما حسُن حذفه كون الخبَرِ مُقابِلًا للمبتدأ، وقد جاء مبيّنًا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النَّحل: 17][3].

دلالة تفريعات الفاء في: ﴿أَفَمَنْ﴾:

تماسُك الآيات مع بيان كُفرهم وشِدَّة غبائهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ تفريع على جُملة ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ المُجاب به حكاية كُفرهم المضمَّن في جُملة ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ فالتَّفريع في المعنى على مجموع الأمرَيْن: كفرهم بالله، وإيمان النَّبيِّ ﷺ بالله. ويجوز أن تكون تفريعًا على جملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، فيكون تَرَقّيًا في إنكار سؤالهم إتيان معجزة غير القرآن؛ أيْ: إن تعجَب من إنكارهم آيات القرآن فإنَّ أعجَب منه جَعْلهم القائم على كُلِّ نفْس بما كسبت مُماثلًا لمَن جعلوهم لله شركاء[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(3) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

سِرُّ العدول عن اسم الجلالة في: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾:

تـخـطِـئـة أهـل الـشِّـرْك وبـيان غَباوتهم

العدول عن اسم الجلالة إلى الموصول في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بسبب أنَّ في الصِّلة دليلًا على انتفاء المُساواة، وتخطِئةً لأهل الشِّرك في تشريك آلهتِهم للّه تعالى في الإلهيَّة، ونداءً على غباوتهم، إذ هُم مُعترفون بأنَّ اللّه هو الخالق والمُقدِّر باعتقادهم ذلك هو أصل إقامة الدَّليل عليهم بإقرارهم، ولِما في هذه الصِّلة من التَّعريض[1].

دلالة الضَّمير في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾:

اتِّـسـاع المعنى وتَـغـايـرُه مع دلالـة تعظيم كلٍّ

عبَّر البيان القرآني بالضَّمير دون غيره في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ لاتِّساع المُراد به؛ فيجوز إطلاقه عليه سُبحانه؛ فإنَّه المتولّي لأمور خَلْقه المُدَبِّر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كُلِّ نفْس من الأنفُس كائنة ما كانت، وقد يَدُلُّ الضَّمير على الملائكة الموكَّلين ببني آدم[2] فالملائكة قائمة عليهم تُحصي أعمالَهم في كتاب، فكان توظيف الضَّمير مُفيدًا في اتِّساع المُراد به.

نكتة الاستغناء عن تقدير مُعادِلٍ للهمزة:

قـوَّة الـحـذْف لانحصار تقدير المحذوف

في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ جاء سِرُّ الاستغناء استخفافًا به، وهوانًا له، وتنزيهًا للّه سُبحانه أن يُقارَنَ به شيء من خَلْقه، أو من ضلالات خَلْقه، ولهذا جاء النَّظْم القرآنيُّ عارضًا قُدْرة اللّه، وأنَّه القاهر فوق عِباده، القائمُ على كُلِّ نفْس بما كسبَتْ، ضارِبًا عن ذِكْرِ الآلهة الَّتي افتراها المُفترون، وعبَدَها المُشركون الضّالّون[3]، وكذلك فقد استُغنيَ عن تقديرِ مُعادلٍ للهمزة، لأنَّ هذا المُقدَّر المَدلول عليه بدليل خاصٍّ أقوى فائدة من تقدير المُعادل الَّذي حاصله أن يُقدَّر: أم مَن ليس كذلك[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/99.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/129.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

دلالة التّعبير بالوصف ﴿قَآئِمٌ﴾:

بيان الرّعاية مع الإحاطة والمُراقَبة

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ تَعني كلمة (قائم على الأمر) أنَّه هو الَّذي يُدبِّره، ولا تَخْفَى عليه خافية، وجاء الحقُّ سُبحانه هُنا بصيغة القيام؛ كي نَعلَم أنَّ الحَقَّ سُبحانه لا يُدير الأمر من حالة قعود؛ بل يُديره وهو قائم عليه، فَكُلُّ أمر هو واضح عنده غير خَفيٍّ، وهو سُبحانه قائم على كُلِّ نفْس بما كسبتْ إنْ خيرًا فخيْر، وإنْ شرًّا فَشَرّ، ولكنَّكم أيُّها الكافرون المُشركون لا تَملِكون لأنفُسكم ضرًّا ولا نَفْعًا؛ فهل يمكن لعاقل أنْ يساويَ الَّذي يقوم على أمر كُلِّ نفْس بغيره مِمَّن ليس كذلك؟[1]، وعبارة أبي حيّان: "وعبَّر بـ (قائم) عن الإحاطة والمُراقَبة الَّتي لا يغفل عنها"[2]، وهذا دليل على قيّوميَّته سُبحانه على خَلْقه.

دلالة تَعدّي ﴿قَآئِمٌ﴾ بحرْف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

بيان المتابَعة والملازَمة والعِلم

تَعدَّى لفظ ﴿قَآئِمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بحرْف الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ المُفيدِ للاستعلاء المَجازيِّ، وأصله من القيام وهو المُلازَمة كقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: 75] لتَضمُّنه معنى الرَّقيب، وعلى ذلك فالمُراد بمعنى ﴿قَآئِمٌ﴾ القائم على الشَّيْء الرَّقيب، فيَشمل الحفظ والإبقاء والإمداد، ويَجيءُ من معنى القائم أنَّه العليم بحال كُلِّ شيء؛ لأنَّ تمام القيّوميَّة يتوقَّف على إحاطة العِلْم[3]، ولمّا كان القيام دالًّا على الاستعلاء أوضَحَهُ بقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾[4].

سِرُّ التَّعبير بِاسْم الفاعل ﴿قَآئِمٌ﴾:

دلالة الثَّبات على الحفظ والقُدرة

يدلُّ اسم الفاعل ﴿قَآئِمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بصيغته على الثَّبات مُقارَنة بالفعل المضارع، فاسْم الفاعل أشَدُّ ثباتًا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7356/12.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.

على الأمر من المُضارع (يقوم)[1]؛ وكذا قولنا: (قائم) أكثر مُراقَبة وحياطَةً مِن (هو يَقوم)، فدلَّ ذلك على فضْل القُدرة والكلاءَة مع الهيمنة والسَّيطرة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ في هذا السّياق:

بيان العِلم بِكُلِّ الكُلّيات والجُزئيّات

دَلَّ التَّعبيرُ على أنَّ اللّه تعالى هو القادر على كُلِّ شيء، العالِم بجميع المعلومات من الجزئيّات والكُلّيات[2]، وفي هذا تَرهيب وتحذير للكافرين من مُعارَضة الرَّسول ﷺ سواءٌ أكانت هذه المُعارضة ظاهريَّة أم باطنيَّة.

سِرُّ اختيار ﴿نَفْسٍ﴾ دون (مَخلوق):

إبراز التَّكريم، وتعدُّد المعاني

في قوله: ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ الأنفُس من مخلوقاته وهو قائم على الكُلِّ؛ أيْ: مُحيط به؛ لِتُقرِّب المَوعظة من حِسِّ السّامع[3]، إضافة إلى الإشارة إلى تَعدُّد استعمالات الكلمة، فهي بمعنى الذّات؛ أي: الفَرد من النّاس، وذلك في الجمهور الأعظم من مواضع وُرودها، مع لَمْح الحقيقة والباطن، لأنَّ هذه الحقيقة هي مَناط التَّعامل مع اللّه ﷻ، والبدَن تابع، وبمعنى باطن الذّات كما في قوله تعالى: ﴿*وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]، وقد تَدُلُّ على الغيْب كما في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ [المائدة: 116] كما أنَّ النَّفس حقيقةُ الحَيِّ وهو مِن دونها لا شيء، كما يُلمح من لفظة (النَّفس) التَّكريمُ والرِّعاية؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كان قَيِّمًا قيل: شيءٌ نفيس؛ أيْ: يُرغب فيه لخطَرِه[4]، فكان التَّعبير بـ (نفْس) أمْلأ للفائدة.

ومِمّا يُذكر في هذا المقام أنَّ التَّعبير بـ ﴿نَفْسٍ﴾ من باب التَّخصيص والتَّعيين؛ لأنَّه جزءٌ من المَخلوقات؛ لأنَّ المخلوقات أعَمُّ

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 41.
(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/314.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفس).

والأنْفُس أخَصُّ، ولأنَّ المقام هُنا مقام المحاسَبةِ والمُساءَلة؛ فالمُراد هُنا أنْفُس البشَر؛ لأنَّ بعضَ المُخلوقات لا تدخل في مقام المُحاسَبة.

دلالة الإضافة في قوله تعالى: ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾:

استغراق كلِّ أفراد الجنس مع المراقَبة

في قوله تعالى: ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ إضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى كلمة ﴿نَفْسٍ﴾، وهي نكِرةٌ تُفيد استغراق كُلِّ فرْد من أفراد الجِنْسِ[1]، وهُنا تَظْهَر القُدْرة المُطلَقة على مراقَبة كُلِّ نفْس مهْما كانت، ففي الإضافة إحاطَةٌ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾:

المعيَّة الإلهيَّة حاضرة على الدَّوام في كُلِّ عمل

دلَّت الباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ على المُلابَسة، وهي في موقع الحال من (نفْس) أو من (قائم) باعتبار ما يقتضيه القيام من العِلم؛ أيْ: قيامًا مُلابِسًا لِما عَمِلَته كُلُّ نفْس؛ أيْ: قيامًا وِفاقًا لأعمالها من عمل خير يقتضي القيام عليها باللُّطف، والرِّضى فتظهر آثار ذلك في الدُّنيا والآخرة، أو الغضب والبلايا[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿كَسَبَتْ﴾ دون غيرها:

الكسْب أخَصُّ من العمل والفعل

الكسْب فيه إصابة[3]، واجتهاد في التَّحصيل، وقصْديَّةٌ للعمل، فالمعنى المحوريُّ له: جمع الشَّيء وتحصيله شيئًا بعد شيء بِجهْدٍ ما أخْذًا من حيث كان[4]، أمّا الفعل فيخْلو من هذه المعاني، فقد يكون باجتهاد وبغير اجتهاد، فكان التَّعبير بالكسْب أخَصَّ من التَّعبير بالعمل أو الفعل، وفيه تنبيه على بعض حالاتها؛ أيْ: النَّفْس وهو الكسْب، ليتفكَّر الإنسان فيما يكسب من خير وشرٍّ، وما يترتَّب على الكَّسب في الجزاء[5]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ مُعظَم مَواطن الكسْب جاءت في وصْف الكافرين أو الفاسقين الَّذين تجرَّأوا على المعصية

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/241.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.

فصاروا لا يُبالون بها[1]، وقد جاء هذا المَوْطن في سياق الحديث عن الكفّار والمُعانِدين.

سِرُّ اختيار ﴿كَسَبَتۡ﴾ دون (اكتَسبت):

عمومـيّـة الـكَـسْـبِ، وخـصـوصـيّـة الاكتساب

الكسْب أعمُّ من الاكتساب لأنَّ الكسب ينقسم إلى كسْبِ الإنسانِ لنفْسه ولغيره، والاكتساب لا يكون إلّا ما يَكتسب الإنسانُ لنفْسه خاصَّة[2] فكان الاكتساب جزءًا من الكَسْبِ، وفي هذا إحاطة عِلْمِ اللّه بِكُلِّ كبيرة وصغيره يَكسبها العبْد، ومن ذلك أنَّ الكَسْبَ الأصل فيه أن يَكون في الخير، وقد يأتي في الشَّرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81]، أمّا الاكتساب فلا يكون إلّا في فعل السّوء، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿كَسَبَتۡ﴾:

الإشارة إلى تمام الوُقوع والانتهاء منه

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَسَبَتۡ﴾ جاء تحقيقًا للأمر، وتَثبيتًا له[3]، فالكسب ثابت مُنْتهٍ أمْره، مع مُناسبة الفعل لِما قبْله، ولما بعدَه، فقَبلهُ الأفعال الماضية ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾، ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾، وبعده ﴿وَجَعَلُواْ﴾، فالكسب حَصَلَ وثبتَ أمرُه.

دلالة تَعَدُّد معاني الواو في: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

تـعـدُّدُ قُبحهم وسوء صنيعهم في كلِّ معنى

لِلواو وظائف في هذا السّياق، فقد تكون عاطفة تعطف الفعل (جعل) على (كسبَت)، وقد تكون استئنافيّة، والاستئناف إخبار عن سوء صنيعهم، وكونهم أشركوا مع اللّه ما لا يَصلح للألوهيَّة، فَنَعى عليهم هذا الفعل القبيح، وقد تكون للحاليَّة، وتقديره: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمُۢ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ﴾ موجود، وقد جعلوا للّه شركاء[4].

(1) هنداوي، الإعجاز الأسلوبيّ في القرآن، ص: 191.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/115.
(3) ابن جنّي، الخصائص: 3/334.
(4) الإيجيّ، تفسير الإيجيّ: 2/275، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.

سِرُّ اختيار الفعل ﴿وَجَعَلُواْ﴾ دون غيره:

بيان خِفَّة وسفاهة عقولهم وسيطرة العادات الباطلة عليهم

سِرُّ الجعل جاء في معرض بيان خفَّة عقولهم، كاشفًا عن وجه هذه المعبودات الَّتي يعبدونها، وأنَّها من صُنع أيديهم، أو من مواليد أوهامهم وضلالات عقولهم، فهي مجعولَة؛ أيْ: مصنوعة، أو مختلقة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ [النَّجم: 23][1]، فالجعل أصله حِسّي بمعنى الوضع والصِّناعة والتَّصيير[2]، فالفعل دالٌّ على سفاهة العقل وعراقة الجهل.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

بيان ثبات الجعل والتَّمهيد للسُّخرية بعدها

توظيف الماضي دالٌّ على تثبيت الجعل وتأكيده، فليس الأمر حادثًا أو مُستمرًّا وإنَّما هو ثابت ثَبات اعتقادهم، وإضافة إلى هذا أنَّ المضارع لا يصلح هُنا؛ لأنَّ الماضي تمهيدٌ لِما بعدَه ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾، وهذا الأمر ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾ لا يحسُن أن يُقال إلّا إذا انتهوا من عمليَّة الجَعل، فكان الماضي مُمَهِّدًا لجملة التَّبكيت والسُّخرية في الفعل ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾.

دلالة إظهار اسم الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾:

تخصيص الاسم لدفع اللَّبس والوَهم

إظهار اسم الجلالة إظهارٌ في مقام الإتيان بضمير ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾، وفائدة هذا الإظهار التَّعبير عن المُسَمَّى باسمه العَلَم الَّذي هو الأصل؛ إذ كان قد وقَع الإيفاء بِحَقِّ العُدول عنه إلى الموصول في الجملة السّابقة، فتهيَّأ المقام للاسم العَلَم، وليكون تصريحًا بأنَّه المُراد من الموصول السّابق زيادة في التَّصريح بالحُجَّة[3]، وللتَّنصيص على وحدانيَّته ذاتًا واسمًا وللتَّنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة[4].

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.

دلالة تقديم ﴿لِلَّهِ﴾ على ﴿شُرَكَآءَ﴾:

الإصـــرار على الإشـــراك وتعمُّده

جاء التَّقديم على إرادة التَّفسير إثْرَ الإبهام لزيادة التَّقرير والإحكام[1]، إصرارًا منهم على الكُفْرِ، مع ما فيه من التَّخصيص بالتَّقديم فالشَّريك لله وحده، وفي هذا نداء منهم على الغباوة وعَراقة الإشراك.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿شُرَكَآءَ﴾ دون أنداد:

الاعـتراف بالإله مع وجـود آلهة أخرى تُعبد

تعبير البيان القرآنيِّ بالجمع ﴿شُرَكَآءَ﴾ يعني أنَّهم مُقِرّون بوجود الخالق، لكن مع الخالق آلهة أخرى تُعبَدُ، كي تقرِّبهم هذه العبادة إلى الله، أمّا (أنْداد): فجمع نِدٍّ، وهو المُضاهي والمُماثِل والمُعاند[2]، وهم لا يُريدون المُضاهاة والمُماثَلة، فكان التَّعبير بـ ﴿شُرَكَآءَ﴾ أنسَبَ.

نكتة الجمْع دون المُفْرَد: ﴿شُرَكَآءَ﴾:

وصْـف لحالهم مـع المُـنـاداة عليهم بالغباوة والـتَّـنـاهـي في ضَعف الجمْع

نكتة التعبير بالجمع ﴿شُرَكَآءَ﴾ هُنا هي توصيف الجمْع لحالتهم المُزرية، فهُم لَم يتَّخذوا شريكًا واحدًا يَعكفون عليه، وإنَّما كَثُرَ الشُّركاء، فصار لِكُلِّ طائفة شريك، كاللّات والعُزّى ومَناة، وفي الجمع نعيٌ على قباحة تفكيرهم، وسوء مُتَّجههم، وتنبيهٌ على غفلتهم، ثُمَّ إنَّ الجمع هُنا يُناسِب ما بعدَه ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾، فكان الجمع مُمَهِّدًا لفعل الأمر ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾، وفيه أنَّ الجمع مع ما فيه من الكَثرة هو جمْعٌ مُتَناهٍ في الضَّعف والقِلَّة تُجاه إله واحد عظيم لا شريك له.

دلالة فصْل جملة ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾:

عـجـز الـشُّـركـاء وضَـعـف عـقـول المُشركين

فُصلت هذه الجُملة عمّا قبْلها؛ لأنَّها استئنافيَّة أُعيد معه الأمر بالقول لاستِرْعاء الأفهام لِوَعْي ما سَيذْكرُ "فكأنَّه قيل: فماذا يُفعل بهم؟ فقيل: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ بأسمائهم الحقيقيَّة، فإنَّهم إذا سمَّوْهم وعُرفتْ حقائقُهم أنَّها حجارة أو غير ذلك

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/535.

مِمّا هو مَركز العجْز ومحلُّ الفَقر، عُرف ما هُم عليه من سخافة العقول ورَكاكة الآراء"[1].

نُكتة التَّعبير بالقول ﴿قُلْ﴾ دون غيره:

جَـذْبُ الانتباه مع دلالة المَعيَّة

التَّعبير بـ ﴿قُلْ﴾ فيه فوائد، الأولى: استئنافٌ أُعيدَ معها الأمر بالقول لاستِرْعاء الأفهام لوَعْي ما سيُذكر[2]، الثّانية: إلماحَة إلى وقوف اللّه بجانب رسوله في تبليغ الدَّعوة.

دلالة الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾:

أمْرُ الله لرسوله بتبليغ الدَّعوة ومساندته له

في الفعل فائدتان، الأولى: بيان أثَرِ القول في تحطيم الفِكر الثّابت في نفوسهم، وهَزِّ الأرض من تحت أقدامهم بعد إطلاق لِسانه البليغ في حرْبه ضدَّهم، الثّانية: تقوية قلب الرَّسول ﷺ وإعلامُ المُشركين بأنَّ اللّه مُلَقِّنٌ رسولَه كلَّ حُجَّة لإبطال ادِّعائهم الكاذب في أصله.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ دون غيره:

عـدَمُ الاعتداد بالأصنام، وإبراز سخافة عقول الكفّار

قوله تعالى ﴿سَمُّوهُمْ﴾ إشارة إلى أنَّها كلمة جامعة، وقد تضمَّنَت ردًّا عليهم، فالمعنى: سمّوهم شركاء فليس لهم حظٌّ إلّا التَّسمية؛ أيْ: دون مُسمَّى الشَّريك، فالأمر مُستعمَل في معنى الإباحة، كناية عن قِلَّة المُبالاة بادِّعائهم أنَّهم شركاء، مثل: ﴿*قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ [الإسراء: 50]، وكما تقول للّذي يُخطئ في كلامه: قُلْ ما شئتَ، والمعنى: إنْ هي إلّا أسماء سمَّيْتموها لا مُسمَّيات لها بوصْف الإلهيَّة؛ لأنَّها حجارة لا صفات لها من صِفات التَّصرُّف، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: 40] وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النّجم: 23]، وهذا إفحام لهم وتَسْفيهٌ لأحلامهم بأنَّهم ألَّهوا ما لا حقائق لها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/149.

فلا شُبْهة لهم في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الرّعد: 16][1]، وفيه أيضًا تَحَدٍّ لهؤلاء المُشركين أن يَكشفوا عن وجْه هذا الخِزي الَّذي في أيديهم، وأن يَضَعوا لهذه المواليد أسماءً تُعرف بها! فكَما استَوْلَدوا هذه الآلهة من ضلالاتهم، كان عليهم أن يَضَعوا لِكُلِّ مولودٍ اسمًا[2].

دلالة التَّعبير بالضَّمير (هُم) عن الشُّركاء:

الإهانة والاستهزاء بالآلهة المَزعومة

عبَّر النَّظْم الكريمُ عنهم بضمير (هُم) الدّالِّ على العاقل على حسب زعْمهم وأوْهامهم، وإلّا فهي حجارة لا تَضُرُّ ولا تنفع، ولا تعقل ولا تُدرِك[3]، وفيه تبكيتٌ لهم إثْرَ تبكيتٍ؛ أيْ: سمّوهم مَن هُم وما أسماؤهم، أو صِفوهم وانظروا هل لهم ما يَستحقّون به العبادة ويستأْهِلون الشِّرْكة[4].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَمْ﴾ دون (أتنبّئونه):

بيان الإنكار والتَّوبيخ لأفعالهم القبيحة

﴿أَمْ﴾ المُنقطعة، جاءتْ للإضراب الانتقاليِّ، ودَلَّت على أنَّ ما بعدها في معنى الاستفهام، وهو استفهام يُفيد الإنكارَ والتَّوبيخ؛ أيْ: أتُنَبِّؤنه بشيء لا يَعلمه، والمعنى ما كان لكم أن تَفْتروا على الله فتَضَعوا له شركاء مُفترينَ على الله الكذب.

سِرُّ التَّعبير بالنَّبأ دون الخبَر ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾:

عظَمة النَّبأ وأهمّيته عن الخبر

النَّبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به عِلْم أو غلبة ظَنٍّ، وحقُّه أن يَتعرَّى عن الكذب[5]، ففي التَّعبير بالنَّبأ هُنا دلالة على عِظَم الموقف مع عظَم الكذب، فكأنَّه سُخرية ممّا قالوا بجَعْله نبأ في معتقدهم، وما قالوه ليس بشيء، فكان التَّعبير بالنَّبأ مُجاراةً لعقولهم القاصرة واستهزاءً بهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3956.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(5) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ دون غيره:

استحضار صورة تنبيئهم والسَّعي المُتواصل لهم

المُضارع دالٌّ على الدَّوام والاستمرار، واستحضار صورة تنبيئهم، فكأنَّهم لا يَفترون عن التَّنبيءِ، ليلهم ونهارهم، وفي هذا دليل على شِدَّة تَمَسُّكهم بعبادتهم وأصنامهم الَّتي اتَّخذوها، فالتَّنبيء المُتواصِل دلالة سيْطرة الفِكرة على عقولهم، وتَنبيءُ "عالِم السِّرِّ والخَفيّات بما لا يَعلمه مُحالٌ على مُحال"[1].

نُكتة الإضمار في قوله: ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾:

الإيجاز والبُعد عن اللَّبس

يُؤتى بالضَّمائر كُلِّها لضرب من الإيجاز، والاحتراز من اللَّبس؛ لأنَّ الضَّمير يُستغنى به عن الاسم بكامله[2]، أمّا اللَّبْسُ فقد انتَفى عند ذِكْرِ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، فكان الفعل ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بالضَّمير عائدًا على أقرب مَذكور وهو اللّه ﷻ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿بِمَا﴾:

تحقير تلك الآلهة الباطلة

التَّعبير بـ ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ يحمل سُخرية واستهزاءً بالمُدَّعي؛ لأنَّ (ما) في الأصل اسم موصول لغير العاقل؛ وفي هذا اتهامٌ للآلهة المزعومة بأنَّها ليست جديرة بأن تُذكر ذِكر العُقلاء، لأنَّها في مصافٍّ غيرهم، إضافة إلى ذلك فإنَّ (ما) أكثرُ إبهامًا من غيرها كالاسْم الموصول (الَّذي)؛ فالاسم (ما) دالٌّ على تَحْقير ما اتَّخذوه من الشُّركاء.

بلاغة التَّعبير القرآنيِّ في نفْي الشُّركاء:

تقرير سَعَة عِلم الله ونفْي وجود الآلهة

قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذه الجملة القرآنيَّة كناية عن غير الموجود؛ لأنَّ ما لا يَعلمه اللّه لا وجود له، إذ لو كان موجودًا لَم يَخْفَ على عِلْم العلّام بِكُلِّ شيء[3]، وفي ذلك إظهار لجَهلهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

بصِفات الخالق ﷻ، وفيه نفْي الشَّيء بإيجابه أو عكس الظّاهر وهو من مُتطرّفات عِلم البيان، وحقيقة هذا النَّفي أنَّهم ليسوا بشُركاء وأنَّ الله لا يَعلمهم كذلك لأنَّهم - في الواقع - ليسوا كذلك، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلّا أنَّها مَربوبة حادثةٌ لا آلهة معبودة، ولكن مَجيء النَّفي على هذا السَّنن المتلوّ بديعٌ لا تكاد تُكْتَنَهُ بلاغتهُ[1].

سِرُّ التَّعبير بالعِلم لا المعرفة في: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾:

هــوان الآلـهـة المزعومة لعدَمِ استحقاق العِلْمِ بها

العِلم إدراك الشَّيء بحقيقته وجوهره[2]، أمّا المَعْرِفَةُ فلا يُشترط فيها هذا؛ فالله عالِم لا عارف، وهذا يعني أنَّ الله عالِمٌ بِكُلِّ الحقائق والجزئيّات والكلّيّات، لا عارف فقط فالتَّعبير بالعِلم يُراد به نفْي الآلهة "بنفي لازِمها على طريق الكناية؛ لأنَّه سُبحانه إذا كان لا يَعلمها وهو الَّذي لا يَعزُب عن عِلمه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء فهي لا حقيقة لها أصلًا"[3]، كما يجوز أن يكون نفي العِلم هُنا عن الآلهة الَّتي اتَّخذوها، وتقدير الكلام: أتنبِّئون الله تعالى بشركة الأصنام الَّتي لا تتَّصف بعِلمٍ ألبَتَّة[4]، فيكون نفي العِلم هُنا مُتَّجِهًا للأصنام لا لله.

سِرُّ نفْي العِلم في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ دون السَّماوات:

بـيـان جهلهم والـتَّـعـريـض بغباوتهم

سِرُّ التَّقييد زيادة في تجهيلهم، والتَّعريض بغباوتهم؛ لأنَّه لو كان يَخفى عن عِلمه شيء لَخَفي عنه ما لا يُرى، ولَما خفيت عنه موجودات عظيمة بزَعْمكم، وفي سورة يونس ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 18]؛ زيادة في التَّعميم[5]،

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/129.
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.

وفيه إشارة إلى أنَّ هذه الآلهة الَّتي أطلَقوا عليها تلك الأسماء، هي من العالَم الأرضيِّ، من أحجارِه، أو حيواناته[1]، كما أنَّ ذِكْرَ نفْي العِلم في الأرض، وهي مَقَرُّ تلك الأصنام، يَدُلُّ على انتفاء عِلمها في المقرِّ الَّتي هي فيه، فانتفاؤه في السَّماوات أحْرى[2]، إضافة إلى أنَّ تخصيص الأرض بالذِّكر لأنَّها المُشاهَدَة القريبةُ، وإلّا فقد عبدوا الشِّعْرَى والعَبور، وعَبدوا الشَّمس إلى غير ذلك[3].

دلالة ﴿أَمْ﴾ في: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾:

الإضـــراب عن الكلام السّابق مع التّوبيخ

دلَّت ﴿أَمْ﴾ على الإضراب عن الكلام السّابق عليها، مع دلالتها على الاستفهام التَّوبيخيّ الَّذي يُنبِّهُهُم إلى فساد قولهم[4] وادِّعاءاتهم وبيان كذبهم وبُهتانهم، فما دامَ قد ثبتَ أنَّه لا حقيقة لأصنامهم الَّتي يَعبدونها، فأوصافهم لا تُثبت ألوهيَّة - بل لا تثبِتُ وجودًا - لها نفْع وضَررٌ[5].

سِرُّ اختيار التَّعبير ﴿بِظَٰهِرٍ﴾:

سطحيَّة فِكْرِ المشركين وتفاهة عقولهم

في التّعبير بـ ﴿بِظَٰهِرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إشارة إلى أنَّ هذه الأسماء الَّتي أطلَقوها على آلهَتهم هي كلمات لا معنى لها، وإنَّما هي أصوات، تَبدو في ظاهرها كأنَّها كلام، أمّا باطنها فأجْوَف لا شيء فيه، فليس له معنًى وحقيقةٌ، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب يُنادي على نفْسِه بالإعجاز[6].

البلاغة في فنّ الاستِدراج:

الحـــثُّ على التَّـــفـــكـــير والمُراجَعة

في قوله: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يبرُزُ فنُّ الاستدارج، وذلك لحثِّهم

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/306.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3956.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3958.
(6) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.

على التَّفكير دون القول المجرَّد من الفِكْر، كقوله في مكان آخَر: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التّوبة: 30] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: 40]، وهذا الاحتجاج من أعجَبِ الأساليب وأقْواها[1].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿بَلْ﴾: ﴿بَلْ زُيِّنَ﴾:

الاحتجاج على كُفرهم ومَكرهم

مجيء (بل) في قوله ﷻ: ﴿بَلْ زُيِّنَ﴾ للإضراب والاحتجاج عن القول، والأمر أنَّهم زُيِّن لهم ما هُم عليه بوَهْمٍ توهَّموه وخيالٍ تخيَّلوه، وكان ذلك الخيال أساسَ مَكْرِهم وتدبيرهم ضِدّ الحَقِّ وأهل الإيمان، وبه صُدّوا عن السَّبيل، وصَدّوا غيرَهم عن الطَّريق السَّويِّ[2]، فهو إضراب عن الاحتجاج عليهم.

سِرُّ التَّعبير بالتَّزيين: ﴿بَلْ زُيِّنَ﴾:

الإشـــارة إلى الخداع والإيهام

توظيف ﴿زُيِّنَ﴾ آتٍ من كون التَّزيين كُلِّه من الحِليَة الظّاهرة[3]، وكأنَّ التَّزيين خِداع ومواراةٌ حتّى يَحسبه المُزَيَّن له - باسْم المفعول - هو طريق النَّجاة فإذا هو الهلاك بعَيْنه، مع المكْر، وهو أشَدُّ الخِداع، فجاء الفعل (زيّن) مع الزّينة الظّاهرة وهي أيضًا خادعة موهِمة، فكانت المُناسَبة بين الفعل ونائب الفاعل حاضرةً.

سِرُّ التَّعبير بالبناء للمفعول: ﴿زُيِّنَ﴾:

الـتَّركـيـز على عمليَّة التَّزيين مع تعدُّد المُزيِّنين

يتجلّى سِرُّ التَّعبير بالبناء للمفعول في قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ في أنَّ الكلام جرى بعدَه بتَرْك تَسْمية الْفاعِل ليَأْتلف الكلام على نِظام واحِد[4]؛ أيْ: إنَّ ما يَليه من كلام مبنيٌّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه أيضًا ﴿وَصُدُّواْ﴾ فحصل التَّناسُب، ثُمَّ إنَّ البناء لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه يُصوِّر المَكْرَ كأنَّه شيء مُحبَّب، فتَهافَتوا عليه تهافُتَ الفَراش على النّار وأعْرَضوا

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/129.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3958.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(4) ابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 373.

عمّا سواه كأنَّه حياتهم[1]، إضافة إلى جواز تعدُّد المُزيِّنين لهم ذلك، والمُراد هُنا أنَّ أئمَّة الكُفْرِ مثل عمرو بن لُحيّ وضَعوا للعرَب عبادة الأصنام وحسَّنوها إليهم مُظهِرين لهم أنَّها حَقٌّ ونفْع، وما أرادوا بذلك إلّا أن يكونوا قادة لهم ليسوِّدوهم ويعبدوهم، فلمّا كان الفعل المبنيُّ للمفعول يقتضي فاعلًا مَنْويًّا كان قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قوَّة قولك: زَيَّن لهم مُزَيِّنٌ، والشَّيء المُزَيَّن هو عبادة الأصنام؛ فهي المفعول في المعنى لفعل التَّزيين المبنيِّ للمفعول[2].

دلالة وضع المؤصول ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ موضع المُضمَر:

ذَمُّ الكافرين وتسجيل الكُفْرِ منهم

وضْعُ الموصولِ موضِعَ المضمَرِ جاء ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالكُفر[3]، وأنَّهم قَصدوا واجتهدوا فيه حتّى يَصلوا إلى منزلة عظيمة في الكُفر؛ ليكون الجزاء وِفاقًا لهم. وتنبيهًا على الوصْف الَّذي قادَهم إلى اعتقاد الباطل، وهو سَتْر ما أدَّى إليه برهان العقل المُؤيَّد بدليل النَّقل[4].

دلالة التَّعبير بجُملة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

ثبات الكُفّار على الكُفر، ومُناسبة السّياق

إيثار القرآن للاسم الموصول (الّذين) مع صِلته فيه إشارة إلى عُمق الكُفْرِ في نفوسهم، فالجملة الموصوليَّة أفادَت الذَّمَّ، فإتيان الموصول الماضي قُصِد به الالتباس والاستصحاب[5]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلته يَدُلُّ على اختيارهم الكُفْرَ بإرادتهم من دون تدخُّل في اختيارهم، فكان التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِهِ دونَ اسم الفاعل هو الأنسَبَ، ويُضاف إلى ذلك مُناسَبة السّياق؛ أيْ: إنَّ التَّعبير عن الإيمان والكُفر جاء في السّياق بالاسم الموصول مع الفعل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/494، في حديثه عن زينة الحياة الدّنيا.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/153.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(5) محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 187/1.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَكْرُهُمْ﴾ لا (كَيْدهم) ونحوه:

بيان الخديعة والسَّتر دون الإظهار

مادَّة (مكر) تَدور على التَّغطية والسَّتر، فالمكْر: الخديعة، قالوا: وهو الاحتيال بما لا يَظهر، فإذا ظهر فذلك الكيْد، ويلزم منه الاجتهاد في ضَمِّ أشْتات الأمر لستْر ما يُراد[1]، ومن الأسرار أيضًا أنَّه يجوز أن يُسمَّى المكْرُ كُفرًا؛ لأنَّ مَكْرهم برسول الله ﷺ كان كُفْرًا[2]، ففي المكْر معانٍ ليست في الكيْد؛ فكانت الأنسَبَ.

سِرُّ تقديم جملة الصِّلة على ﴿مَكْرُهُمْ﴾:

عَوْدُ الضَّمير على مُتقدِّمٍ مع التَّفسير بعدَ الإبهام

السِّرُّ اللُّغويُّ قائم في أنَّ الضَّمير في لفظة ﴿مَكْرُهُمْ﴾ يعود على المُتَقدِّم ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فتأخَّر نائب الفاعل ﴿مَكْرُهُمْ﴾؛ لأنَّ الضَّمير يعود على مُتَقَدِّم، فلو صارَ التَّعبير (زيّن كفرهم للّذين كفروا) لَفَسَدَ التَّركيب، ولصار خاليًا من المعنى، وقد يكون الكُفْرُ هُنا دالًّا على طائفة أُخرى غير الطّائفة الَّتي عادَتْ رسول الله ﷺ لو تَقَدَّم نائب الفاعل ﴿مَكْرُهُمْ﴾، ثُمَّ فيه تفسيرٌ بعد الإبهام، وهذا فيه من تشوُّف النَّفْس واستعدادها لِما بَعد، فكان تقديمُ جُملة الصِّلَة أنسَبَ.

سِرُّ التَّعبير عن عبادة الأصنام بـ ﴿مَكْرُهُمْ﴾:

بيان أنَّ المكْر إظهارُ شيءٍ وإبطانُ غيره

سِرُّ التَّعبير في قوله سبحانه: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ أنَّ المَكر إظهار شيء وإبطان غيره، وذلك أنَّهم أظهَروا أنَّ شُركاءهم آلِهة حقًّا وهم يَعلمون بُطلان ذلك، وليس لهم همٌّ في الباطن إلّا تقليد الآباء، وأظهَروا أنَّهم يَعبدونها لتُقرِّبهم إلى الله زُلفى، ولتَشفَع لهم، وهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، فصار كُلُّ ذلك من فعلهم فعل الماكِر[3]، ثُمَّ إنَّ مكْرهم كيْدُهم للإسلام بشِركهم أو تَمويهِهم الأباطيل، فتكلَّفوا إيقاعها في الخيال من غير حقيقة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/99.
(3) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.

ثُمَّ بعد ذلك ظنّوها شيئًا لتَماديهم في الضَّلال، وعلى هذا المُراد مكْرهم بأنفُسِهم، وعلى الأوَّل مكرُهم بغيرهم[1].

دلالة إضافة المَكْر: ﴿مَكْرُهُمْ﴾:

قـوّة تزيين المكْرِ مع تخصيصهم بالضَّمير

الدَّلالة هُنا أنَّ المَكر مُرادٌ به عِبادة الأصنام، وهذا يعني أنَّ إضافة (مكر) إلى ضمير الكفّار (هم) من إضافة المصْدر إلى ما هو في قوَّة المفعول وهو المجرور بباء التَّعْدية؛ أي: المكْر بهِم ممَّن زيَّنوا لهم[2].

سِرُّ التَّعبير بالمصْدر ﴿مَكْرُهُمْ﴾:

المصدر أعَـمُّ من الفعل

التَّعبير بالمصْدر يُلائِم أن يكون نائب فاعل للفعل ﴿زُيِّنَ﴾ المبنيِّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه، إضافة إلى ذلك فالمصْدر دالٌّ على حدث دون اقتران بزَمن[3]، فكان عامًّا لا خاصًّا، عكس الفعل الَّذي يرتبط الحدَثُ فيه بزمن، فَدَلَّ على تطاوُل المكْر ولحاقِهِ بِكُلِّ زمَن.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

الصَدُّ عن سبيل الله من تزيين الكافرين

عطف قوله تعالى: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ على جملة ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ على قراءة الجمهور - بفتح الصَّاد - فهو باعتبار كون مضمون كِلْتا الجملتَيْن من أحوال المُشركين: فالأولى باعتبار كونهم مَفعولين، والثّانية باعتبار كونهم فاعلين للصَّدِّ بعد أن انفَعَلوا بالكُفر، وقَرَأه عاصِم، وحمزة، والكسائيُّ، وخَلَفٌ: ﴿وَصُدُّواْ﴾ - بضَمِّ الصَّاد - فهو كجملة زُيِّن للّذين كفروا في كون مضمون كِلْتَيهما جَعل الَّذين كفروا مَفعولًا للتَّزيين والصَّدِّ.

أثَر تعدُّد القراءات في: ﴿وَصُدُّواْ﴾:

تـعـدُّد طـرائـق الصَّدِّ

اختلف المعنى بناء على تغايُر القراءتَيْن، فمَن قَرَأها بفتْح الصّاد،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 2/169.

معناه: أنَّهم لمّا زُيِّنَ لهم ما هُم فيه وأنَّه حَقٌّ، دعَوا إليه وصَدّوا النّاس عن اتِّباع طَريق الرُّسل، ومَن قَرَأها ﴿وَصُدُّواْ﴾؛ أيْ: بما زُيِّنَ لهم من صحَّة ما هُم عليه، يكون المعنى: (مُنِعوا عن السَّبيل)، والصّادُّ هو المانِع، ويكون المُراد أنَّ الله تعالى صَدَّهم[1]، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 41] وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النّحل: 37][2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَصُدُّواْ﴾ دون (منعوا) وغيره:

الصَّدُّ انصِراف عن الشَّيْء وامتناع عنه، وفيه إعراض وصُدوف، وفي الصَّدِّ هجْرٌ وتَرْك وسُخرية من الصّادِّ[3]، وكأنَّ الصَّدَّ منْع وزيادة، مع دلالة التَّشديد في الفعل (صدّ)، والتَّشديد تَكرار عمل تِلْو عمل.

في الـصَّـدِّ مَنعٌ وإعــراضٌ؛ فهو منْعٌ وزيادةٌ

دلالة (عن) في ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

من معاني (عن) في اللُّغة الدَّلالة على المُجاوَزة والتَّرْك والبُعد، مع التَّراخي[4]، فالحرْف دالٌّ على إعراضهم ونفورهم من الدَّعوة وصاحبها، بحيث ظلّوا في غيِّهم يتردَّدون تارِكين طريق الحقِّ مُتجاوِزين عنه، مُتراخينَ في الانضمام إلى طائفة الإيمان.

البُعد والمجاوَزة والتَّراخي

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ دون مرادفاته:

السِرُّ في التَّعبير بـ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ حمْل اللَّفظ معنى التَّهكُّم من ضَلالهم؛ لأنَّ السَّبيل هو ذلك الطَّريق الَّذي يَمتاز بالسُّهولة واليُسر والوضوح كما تقول المَعاجم[5]، فهذا يعني أنَّ ضلالهم عظيمٌ،

غباوة عقولهم وشِدَّة كراهيتهم للإسلام

(1) الكبيسيّ، الموضّح في وجوه القراءات: 2/703.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/399.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(4) الزّمخشريّ، المفصّل في صنعة الإعراب، ص: 385.
(5) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

مُسيْطر عليهم يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجُلِهم، وكان الأحْرى بهم اتِّباع الرَّسول لسُهولة طريقه ووضوحه، وليس هذا المعنى مَوجودًا في الطَّريق.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ مُعرَّفًا:

عـظَـمـة هـذا السَّبيل الحقّ

المُراد بـ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ هُنا سبيل الحَقِّ فتعريفه للعَهد؛ أيْ: كأنَّكم تَعرفونه، ولكنَّكم اعتَدْتُم العِناد، والإصرارَ، كأنَّه قال: مَن تَرَك سبيل الله، وهي اتِّباع الفطرة، كان من سُنَّة الله أن يكون ضالًّا طولَ حياته، إذ لا تَجِد له سبيلًا أخرى يَسلكها فيَهتدي بها إلى الحقِّ[1]. والتَّعريف هُنا دالٌّ على تعظيم هذا السَّبيل، كأنَّ ما عَداه غير سبيل.

سِرُّ التَّعبير بفعل الشَّرْط: ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾:

الـحـرمـانُ من إدراك التَّوفيق لتَوَغُّل الضّالّ في غَيِّه

أوثِرَ التَّعبير بفعل الشَّرْط؛ كناية عن نفْي أسباب النَّجاة عن الضَّلالة وعَواقب العقوبة عليها[2]؛ لأنَّ الضَّلال جاء بعد خطوات وئيدَةٍ من الضّالِّ في طريق الضَّلال، فكأنَّ الضّالَّ غير سريع للاهتداء أو غير قابِل له، وحِرمانه من تَدارُكه إيّاه بالتَّوفيق كُلَّمَا تَوغَّل في الضَّلالة[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَمَن﴾ دون غيرها:

الإشـــارة إلى عموميَّة الشَّرْط

تَحمل (مَن) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ في دلالتها العُموم بالاتِّفاق[4]، فالضَّلال سبيل كلِّ إنسان لا يوفِّقه الله إلى الخير، مع كثرة طَرائقِ هذا الخير الَّذي لا يَخفى إلّا على مَطْموس البَصيرة، وقد قال النُّحاة: أسماء الشَّرْطِ في قوَّة كلمتَيْن[5].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 5/264.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/123.
(4) ابن هشام، المباحث المرضيّة المتعلّقة بـ (من) الشّرطيّة، ص: 39.
(5) ابن هشام، المباحث المرضيّة المتعلّقة بـ (من) الشّرطيّة، ص: 33.

دلالة الإسناد في: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾:

عِلمُ الله الأزليّ بأن ضلالهم مَطْمور في جِبلّتهم

في قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى أنَّ ضلالهم داءٌ عَياءٌ؛ لأنَّه ضلال مُكَوَّن في نفوسهم وجِبلّتهم قد ثبَّتَته الأيام، ورسَّخه تعاقُبُ الأجيال، فرانَ بغشاوته على ألْبابهم، فلمّا صار ضلالهم كالمَجبول المطْبوع أُسند إيجاده إلى الله كناية عن تَعَسُّر أو تَعَذُّر اقْتِلاعه من نفوسهم[1].

دلالة فَكِّ الإدغام في الفعل: ﴿يُضْلِلِ﴾:

إضلال الله لهم بعدَ ابتعادهم عن كُلِّ أسباب الهداية

التَّعبير بالفَكِّ هُنا فيه إشارة إلى أنَّ الإضلال لا يكون إلّا بعدَ حِرْص المَرْء نفْسه على أن يكون ضالًّا، بابتعاده عن كُلِّ أسباب الهداية التّي يَسَّرها الله له، لكنَّه أبى واستَكْبَر، وكأنَّ فَكَّ الإدغام دالٌّ على أنَّ الإضلال لا يكون مُباشرة، لكنَّه يكون بعدَ أن يُرسل الله الرُّسلَ للهداية فيَأْبى المَرْء الهداية، فيزيده الله ضلالًا على ضلال.

دلالة دخول الفاء في: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾:

بيان التَّوكيد مع ربْط أوْصال التَّركيب

الفاء في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ رابطةٌ، تُفيد السَّبب في الشَّرط؛ لذا خُصَّت في هذا الموضِع، وأتوا بها لتُفيد الإتباع وتُؤذِن بأنَّ ما بعدَها مُسَبَّب عمّا قبلها[2]، إضافة إلى ذلك فإنَّ دخول الفاء يَدُلُّ على زيادة التَّوكيد؛ لأنَّ زيادة المبْنى دالَّةٌ على زيادة المعنى، ومن كُلِّ هذا يتبيَّن سَبَبُ نفْي هدايتهم (هو إضلال الله تعالى)، فالإضْلال قويّ شديدٌ لِذا انْتَفى الهادي.

سِرُّ النَّفْي بـ(ما): ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾:

شموليَّة (ما) ودلالتها على التَّوكيد

في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (ما) آكَد من (ليس)؛ لأنَّها تَقَع جوابًا للقسَم، يُقال: (والله ما هو بمُنطلق) بخِلاف (ليس)، وأوْسَعُ استعمالًا منها لأنَّ (ليس) تختَصُّ بنفْي الجُملة الاسميَّة فقط، أمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/14.
(2) ابن يعيش، شرح المُفصّل: 9/2.

(ما) فتختَصّ بنفْي الجملتَيْن الاسميَّة والفعليَّة، كما أنَّ ﴿فَمَا﴾ فيها معنى التَّوكيد[1]، فكأنَّ (ما) نَصٌّ في نفْي ما تَنْفيه، وهو هُنا ﴿هَادٍ﴾، وأُريد من نفْي الهادي من قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ نفْيُ حُصول الاهتداء، فَكَنَّى عن عدَمَ حصول الهُدى بانتفاء الهادي لأنَّ عدَمَ الاهتداء يَجعل هاديَهم كالمَنفيِّ[2].

سِرُّ التَّعبير بِاسْم الفاعل ﴿هَادٍ﴾:

دلالة الثَّبات في اسم الفاعل عنه في المُضارِع

في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ اسم الفاعل (هاد) دالٌّ بصيغته على الثَّبات مُقارَنة بالفعل المُضارع، فاسْم الفاعل أشَدُّ ثباتًا على الأمْرِ من المُضارع (يهدي)؛ وكذا قولنا: ﴿هَادٍ﴾ أكثر هداية من (هو يهدي)، وكأنَّ الهداية صارَتْ شيئًا مُلازِمًا للهادي، يُضاف إلى ذلك أنَّ لفظة ﴿هَادٍ﴾ جاءت سَبَبًا في دخول ﴿مِنْ﴾ الاستغراقيَّة الَّتي تَنْفي جنس الهُداةِ، أمّا المُضارع (يهدي) فمُشير إلى حذْف حرْف الجَرِّ وتحويل الجُملة الاسميَّة الأشَدِّ ثباتًا إلى جملة فعليَّة (فما يهديه أحَد)، وهذا ضعيف في العِبارة.

سِرُّ حذْف الياء في: ﴿هَادٍ﴾:

موافَقة رؤوس الآي مع دلالة قِلَّة هؤلاء الهادينَ

أكثَرُ القُراء وقَفوا على الدّالِ من غير إثبات ياء؛ لأنَّنا نقول في الوَصْل: هذا هادٍ، فتحذفُ الياء لسُكونها والتِقائها مع التَّنوين، فإذا وقَفْنا حُذِفَ التَّنوين في الوَقف في الرَّفْع والجَرِّ، والياء كانت حُذِفت، فيُصادف الوَقف الحركة الَّتي هي كسرة في غير فاعل فنحْذفها كما تُحذف سائر الحركات الَّتي تَقِف عليها، فيصير ﴿هَادِ﴾[3]، وقد يكون الحذْف إشارةً إلى القِلَّة[4]، قِلَّة الواقينَ لهؤلاء، وبخاصَّة أنَّ ﴿هَادٍ﴾ مَسبوقةٌ بـ (من) الاستغراقيَّة الدّالَّة على نفْي

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/225، وما بعدها.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/14.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/44.
(4) فاضل السّامرّائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، ص: 31.

جنس الهادين، يُضاف إلى ذلك مُناسبة رؤوس الآي ذلك أنَّ قبْلها ﴿عِقَابِ﴾ بدون الياء، وبعدَها ﴿وَاقٍ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

النَّبأ والخبَر:

النَّبأ خبر يَحمل الأوّليَّة الزَّمانيَّة مع التَّعظيم

النَّبأ كما يقول أهل اللُّغة أهمُّ من الخبر وأعظَم منه، وفيه فائدة مُهمَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النَّمل: 22]، وفي القرآن النَّبأ أهمُّ من الخبَر كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [ص: 67] وقولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النَّبأ: 2]، والنَّبأ في اللُّغة هو الظُّهور، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة (خبَر) مُفرَدة في موطنَيْن في قصَّة موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص: 29]، وقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النَّمل: 7]، وهُناك فرْق بين الخبَر والنَّبأ العظيم، وفي أخبار الماضين والرُّسُل استعمل القرآن (نبأ)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التَّغابن: 5][1].

ومن هذا فالنَّبأ يختلف عن الخبر؛ فكلُّ نبأ خبر، وليس كلُّ خبر نبأً؛ لأنَّ النَّبأ يحمل الأوليَّة الزَّمانيّة مع التَّعظيم.

العِلم والمعرفة:

الْعلم يكون مُجملًا ومُفصَّلًا والمعرفة أخصُّ منه

المعرفَة أخَصُّ من الْعِلم؛ لِأنَّها عِلْمٌ بِعَين الشَّيْء مُفصَّلًا عَمّا سواهُ، والعِلم يكون مُجملًا ومُفَصَّلا، فَكلُّ معرفَةٍ عِلْمٌ ولَيْسَ كُلُّ عِلْمٍ مَعرِفَةً، وذلكَ أنَّ لفظ الْمعرفَة يُفيد تَمْييز الْمَعْلوم من

(1) مثنّى هبيان، من روائع البيان: 28/7.

غَيره، ولَفظ الْعِلم لا يُفيد ذلك إلّا بِضَرْب آخَر من التَّخْصيص في ذِكر الْمَعْلوم، والشّاهِد قَول أهل اللُّغَة: إنَّ الْعِلم يتَعَدَّى إلى مفعولَيْن لَيْسَ لك الاقْتِصار على أحدهما، إلّا أن يكون بِمَعْنى الْمعرفَة، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ﴾ [الأنفال: 60]؛ أي: لا تعرفونهم اللّه يعرفهُم، وإنَّما كانَ ذلك كَذلِك لأنَّ لفظ العِلم مُبْهَم، فإذا قُلت: علِمتُ زيدًا، فَذَكرْتَه بِاسْمه الَّذي يَعرفهُ بِهِ الْمُخاطَب لَم يَفِ، فإذا قلت: قائمًا، أفدتَ؛ لأنَّك دللتَ بذلك على أنَّك علِمت زيدًا على صِفة جازَ ألا تعْلَمه عَلَيْها مَعَ عِلمك بِهِ في الْجُمْلَة، وإذا قُلت: عَرَفتُ زيدًا، أفدتَ أنَّه بِمَنْزِلَة قَوْلك: عَلِمتُه مُتميِّزًا من غَيره، فاستُغْنيَ عَن قَوْلك: (مُتميّزًا من غَيره)؛ لِما في لفظ الْمعرفَة من الدّلالَة على ذلِك[1].

المكْر والكيْد:

مادَّة (مكر) بأيِّ ترتيب كان: (مكر، ركم، رمك، كرم، كمر)؛ تدور على التَّغطية والسَّتر، فالمَكر: الخديعة، قالوا: وهو الاحتيال بما لا يَظهر، فإذا ظهر فذلك الكيد، ويلزم منه الاجتهاد في ضَمِّ أشْتات الأمر لستْر ما يُراد[2]، ومن الأسرار أيضًا أنَّه يجوز أن يُسمَّى المَكْرُ كُفرًا؛ لأنَّ مَكْرهم برسول اللّه ﷺ كان كُفرًا[3]، ففي المكْر مَعانٍ ليست في الكيْد.

المكر خَديعة تَدور على التَّغطية والسَّتر والكيْدُ فيه معنى الظُّهور

الصَّدّ والمَنْع:

الصَّدُّ انصرافٌ عن الشَّيْء وامتناع عنه، وفيه إعراض وصُدوف، وفي الصَّدِّ هجْر وتَرْك وسُخريةٌ من الصّادِّ[4]، وقد قال أبو هلال العسكريّ: "الصَّدُّ هو المَنْع عن قَصْد الشَّيء خاصَّة، ولهذا قال اللّه

الصَّدُّ هو المنْع عن قَصْد الشَّيء خاصَّة والمنْع أشمَل

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/99.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).

تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]؛ أيْ: يَمنعون النّاس عن قصْدِه، والمنْع يكون في ذلك وغيره ألا تَرى أنَّه يُقال: منع الحائط عن المَيل، ولا يُقال: صَدّه عن المَيل؛ لأنَّ الحائط لا قصْد له، ويقولون: صَدَّني عن لقائك، يُريد عن قصْد لقائك وهذا بَيِّن"[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»